

النجف والدراسة الدينية فيها

فكرة الجامعة

وهل آن أن تحقق...؟

الأستاذ يوسف سلمان كبة*

تهدية:

... والعراق مهد الحضارات ومبعث العلوم ومهد العلماء وطلاب المعارف، وهو مصدر تربية الشعوب منذ فجر التاريخ أو قبل ذلك، يوم لم تكن القراءة والكتابة قد عرفها البشر أو إليها اهتدى. فالسومريون والأكديون عرفت حضارتهم بما رسموه على جدران الكهوف من صور وتماثيل...

يبدأ التاريخ في وادي الرافدين _ أقدم بقعة حكمت الحضارة القديمة _ فقد كانت المدارس على اختلاف أنواعها وتباين درجاتها، تدرس فيها شتى العلوم كالتاريخ والجغرافيا والطب وعلم الفلك و.. الخ. وهكذا استمر الحال على عهد البابليين والآشوريين وغيرهم ممن أسسوا دولهم على ضفاف الرافدين فبذروا بذور المدنية، ونشروا لواء العرفان وفيه تنفست المدنيات الأخرى ومنه أخذت روحها، واستمدت قواها. وظل العراق حائزاً قصب السبق في هذا المضمار خلال الأدوار التاريخية التي مرت عليه فعاش سكانه في حياة سعيدة توفرت له أسبابها وسيطر على أوسع مساحة معمورة عرفت حينذاك، وارتبطت العصور بعضها ببعض والعراق في حاله على هذا المنوال _ إلا بعض الشذوذ مما ليس له حساب في التاريخ _ حتى جاء عصر المدنية الإسلامية الزاهر، وصار بفتوحاته سبباً من أسباب بعث النهضة العلمية في ديار الغرب، يوم كان يعتقد بالأساطير ويتخبط في دياجير الجهل؛ ويتعثر في ظلمات الأمية لا يدري هو ابن..!!

* أديب، متتبع.

عن: مجلة الغري النجفية سر ٢ ع ٥٠-٦٥ لسنة ١٣٥٩-١٣٦٠هـ / ١٩٤٠-١٩٤١م.

نبذة تاريخية:

على النحو الذي فصلناه كانت الحركة العلمية في العراق تتقدم واستمرت كذلك أجيالاً، ولم تتوقف الا في أواخر أيام الدولة العباسية، حين اضطربت وافتتن أهلها باثارة البغضاء والشحناء فيما بينهم، وتالب عليها دخلاء السياسة وتورط بها الناس فأهملوا التأليف والتدوين والترجمة، وانشغلوا بسفاسف الأمور للقضاء على بعضهم البعض... فاعتورت البلاد الارزاء بسيطرة الأعاجم (الأتراك والتر) عليها، وكان من نتائج احتلالهم لها ان طمسوا معالم العرفان، وفجعوا العلوم ومعاهدتها بتحريق الكتب والمكاتب وتعطيل النوادي والمدارس، وقتل العلماء ومطاردة الطلاب.. فكان لفعالتهم النكراء هذه أكبر الأثر في توقف العراق عن تقدمه بل وأخذ يتقهقر في سيره، فتفرق الطلاب شيعاً يتبعون أساتذتهم وفروا عن العاصمة (بغداد) خوف الوقيعة والتنكيل!!..

ثم توالى الصدمات على العاصمة بتوالي الغازات وتبدل الحكومات، حتى ملك آل عثمان _ وهم من المماليك _ فكانت اللغة الرسمية هي التركية لا العربية، وعندها خمدت القرائح، ونضب معين العلم وانطفأت تلك الشعلة التي كان يهتدي بنورها العالم رداً من الزمن طويلاً، فمر العراق بدور عصيب عرف بدور الفترة أو دور الغفلة؛ ولم يبق أثر للحركة العلمية الا في مناطق بعيدة عن مراكز الاضطرابات والفتن كالنجف الاشرف والحلة وكربلاء، وهذه المناطق هي التي وصلت ما انقطع من تلك الحركة ولولاها لقضي على الحركة العلمية والأدبية قضاء ليس من بعده بعث ولا نشور.

وانتقال الدراسة الى النجف يكمل بهجرة العلامة الحبرابي جعفر محمد بن الحسن الطوسي اليها والذي كان قد استقل بالامامة في بغداد سنة ٤٣٦هـ وأصبح فيها علماً للشريعة ومانراً للدين، وكانت قد أزدلفت اليه العلماء والأفاضل للتلمذة والحضور تحت منبره، وتقاطر اليه المستفيدون من كل حذب وصوب، وبلغ عدد طلابه الثلاثمائة أو يزيدون من مجتهدي الخاصة والعامة؛ واعترف الكل بفضله المتدفق، مذكراً وفيه شخصية ظاهرة، ونبوغاً خاصاً وعبقورية في العلم والعمل مما حدا بالخليفة العباسي عبد الله بن أحمد (القائم بأمر الله) أن يجعل له كرسيّاً للكلام والافادة، حيث ما كان يسمح يومذاك به الا لوحيد العصر المبرز في علومه على قرنائهِ^(١) ولم يبرح بغداد حتى وقعت الفتنة الكبرى التي سبقتها مآسي وفتن واضطرابات بين الشيعة والسنة؛ والتي ولدتها الحزابات الطائفية؛ تلك الحزابات التي بعدت

(١) طبقات الشافعية ج ٣ ص ٥٢.

الشقة بين الفريقين، وعملت عملها في انهك قوى الأمة وتضعضع كيان الدولة، وسهلت للأعداء حركة الهجوم على بغداد .. ومحو تلك الدولة التي عاشت (٥٢٤) سنة دولة ذات مدينة زاهرة وعمران وتقدم في شتى نواحي العلوم.

لقد حسد الطوسي أعداؤه على منصبه الجدير به وضايقوه غيرة وبغضا، فاصطدموا به فغلبهم؛ فوشوا به الى الخليفة فأعرض عنهم، ولم تفدهم أعمالهم التي أرادوا منها النكاية به، واستمر النزاع بين حزبه والمعارضين له سنين طويلة اسفر عن حدوث الفتنة المذكورة عن طريق النذالة والجبن، والخيانة والغدر وذلك في سنة ٤٤٨ هجرية على عهد الخليفة أبي العباس احمد (المستظهر بالله) فأحرقت من جزائها كتبه وداره التي في باب الكرخ وكرسي كان يجلس عليه للكلام، فخشي العاقبة وتوجه الى النجف الاشرف مرقد أمير المؤمنين (ع) فكان هو المؤسس للمركزية العلمية في العتبة العلوية المقدسة. وعلى أن ابن الأثير يذكر لنا في مؤرخه ان دراسة العلم في النجف بدأت منذ القرن الثالث الهجري، إن دراسة العلم في النجف الاشرف بدأت من القرن الثالث الهجري، وبلغت أوج عظمتها في عهد عضد الدولة احد الخلفاء البويهيين حيث اطلق الصلوات لاهل العلم ورجال الدين المقيمين بالغري وغيرهم من ذوي الفاقة^(١) فقد كان لهجرة العلامة الطوسي اثر فعال في توسيع الحركة العلمية التي بذر بذرها على نحو خاص، فايضت من حينه واجتنتى من ثمارها كثير من الفضلاء واهل الدين؛ وامها من سائر الأقطار جموع غفيرة للارتشاف من تلك المناهل، فراجت بها اسواق العلم وصارت مركزاً من مراكز العلم الشهيرة، ومن ثم كانت الحلة وكربلاء هي الاخرى مناطق الدراسة الدينية، ولكنها كانت للنجف بمثابة الفرع للأصل تستنير بنوره وتستهدي بهديه وتستمد منه القوة وتستند عليه، وتتبع اثر خطاه. وقد نبغ في هذا الدور كثير من العلماء والافاضل الذين خدموا الدين خدمات جليلة، اكبرهم العالم الاسلامي من اجلها وقدرهم حق التقدير وما زالت اثارهم ومؤلفاتهم من أهم المراجع لطلاب العلم ورجال الدين، ولا يمكن في هذه المجلة ان تذكر اسماؤهم كلهم فمنهم الشيخ المفيد والسيد المرتضى والعلامة الحلبي وكاشف الغطاء والعلامة الشهيد.. الخ.

واذا استثنينا هذه المناطق واستطلعنا التاريخ وجدنا العراق ايام الدولة العثمانية قد نال عسفاً واضطهاداً، وعلى الاخص في النواحي العلمية: وليس موضوعنا ان نضيف في ما طرأ على مقدراتنا الأدبية ابان ذلك الدور اذ لا يسع ذكره المجال. ولكن يجب ان نلاحظ ان ذلك الحادث كعامل، وعامل آخر، من جهة أخرى، وهو ان بدأت النهضة الأوربية واخذت تنمو

وتنتج ثمرها، ادت الى فقد العراق وضعه كمركز للحركة التربوية العالمية؛ بل واستبدل الغرب الشرق حياته وعلومه، فاحتمل زاده واقتفى اثره وسار يتابع الخطى شاكياً سلاح الحياة (العلم والعمل) متوسعاً في ما الفى عليه الشرق من مدينة ونور!!

تطور جديد:

وما ان وضعت الحرب العظمى اوزارها وانحسرت عن عظيم تغيير في الخارطة الأوربية؛ وكبير اختلاف في السياسة العالمية، حتى كان العراق قد انتقل من الاستعمار التركي الى الانتداب البريطاني، ومنه استعادت الروح الادبية حركتها واسترجعت بعض قواها، ليس من تلقاء نفسها فحسب؛ بل ان المدارس النائية التي سبق التنويه عنها كانت محور القضية في هذا الدور؛ فنجحت أيما نجاح في اذكاء نار اليقظة في النفوس، ومن ثم تقدمت الحركة الادبية تقدماً سريعاً بعوامل شتى ودوافع تستدعيها الظروف ويستوحىها الموقف... ذلك الموقف المضطرب الذي صادف العراق وهو بين احتلالين افاق فيه الناس وكأنهم افاقوا من سبات عميق، وايقظتهم حركات التحرير القومي، هبوا وقد اشرق عليهم وميض الأمل يبعث في نفوسهم روح الاستقلال ويشجعهم على المطالبة باستعادة الحرية الغالية، ذلك ما اوقد في الافراد شعلة النهضة وارسل في الشباب روح التعليم. فكانت - والحق يقال - حركة تشحذ الهمم؛ وكانت النجف زعيمة هذه الحركة وقطب رحاها فتحت فيها مدارس عديدة وانشئت نوادٍ كثيرة كانت الغاية الاساسية استقلالية ترمي الى تحرير العراق من نير الاستعباد؛ وما الدروس التي كانت تعطى الا سترًا تخفي الهياة القائمة به اعمالها عن السلطات المحتلة.

هذه البذرة أتت كلها وانتشرت ثم توسعت ثم انتشرت وتوسعت بشكل آخر سيما بعد اعلان الحكم الوطني في العراق، فقد نشطت وزارة المعارف الجليلة لفتح المدارس واهتمت بمكافحة الامية ودأبت على بث التعليم في كافة الجهات، فقطع العراق اشواطاً بعيدة في امد قصير، ولم تأل الحكومات المتعاقبة على دست الحكم جهداً في هذا السبيل، بل الفت الشعب وكله رغبة للتعليم وملؤه شوقاً للتحصيل. فما ان مضى على ذلك عشرون سنة حتى كان عدد الطلاب في المدارس يربو على ستين الف طالب وهو عدد بالنسبة الى العراق ووضعاً جداً كبير.

اتجاهات التعليم:

والدراسة في هذا العهد انشطرت الى نوعين هما: -

١- التربية الحديثة، تعهدتها الحكومة بمدارسها الرسمية وغيرها كالمدراس الاهلية

الاجنبية، وفيها ينقسم التحصيل الى الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية، ثم الاختصاص في المدارس العليا والكليات.. ويتبع في السير بهذه الدراسة اقصر الطرق واحداث الاساليب المستندة على الاسس التربوية القوية، وعصارة الافكار من آراء الفلاسفة والعلماء... والغاية من هذه الدراسة، هي بث الروح القومية في الافراد، وخلق نفس صالح للقيام بما تتطلبه اعباء الدولة وما تحتاجه الدولة من الخدمات المدنية السامية للسير في مصاف الدول الراقية والنهوض بها الى اوج العظمة والسؤدد واستعادة عصرها الذهبي ومجدها التليد.

٢- هو الدراسة الدينية، وهي التي عاشت منذ القدم حتى اليوم، ومرت بتلك الادوار العصبية منها والذهبية السياسية والتاريخية. وكانت هذه الدراسة تناول شتى العلوم كالفقه والحديث وعلم الكلام وكذلك المنطق والتفسير وقد تبحت في علم الهيئة والهندسة وغيرها مما سنأتي على تفصيله فيما بعد. والقصد من هذه الدراسة التفقه في الدين والوصول الى اسمى درجات الاجتهاد والوقوف على اصدق معاني الاحاديث في مختلف اشكالها والحصول على اصح التفاسير للآيات المتعلقة بالعبادات واجراء مراسيمها، وربما تناول بعضها دراسة علم اللاهوت لاثبات وجود الخالق والادلاء بكونه واجب الوجود، بالحجج البالغة والبراهين المنطقية على المنطق الصحيح.

هذه الدراسة بعد ان انفصلت عن تلك بمدارسها وطلابها وابتعدت عن مجالس الخلفاء ونوادي الامراء.. وأولئك الذين كانوا يتعهدونها بالتشجيع ويغدقون على اساتذتها من العلماء والشعراء بالهدايا والاموال في مختلف العهود، ذلك التشيع الذي لم تظفر به اية ناحية من نواحي الدولة الاجتماعية، والذي ازدهرت به الدراسة وانتعشت به الآداب... اقول بعد ان فقدت كل آمالها ويئست من تلك الخيرات، جاء دور اعتكافها فانزوت في مدارس شخصية؛ واختصت بطبقة من الناس هي طبقة رجال الدين والروحانيين، وتكاثفت في بيئات تلائمها وملاجئ تمكثها من تطبيق منهجها وترغب في البعد - جهدها - عن المواطن السياسية المضطربة الاجواء وطبعاً فقد وجدت في النجف ضالتها المنشودة وآنست فيها خير مستقر لها ومكان، فاستوطنت بها والف كل منهما صاحبه، وصار طلاب العلم يقصدون النجف الاشرف من كل حذب وصوب. فتخرج منها جمهور كبير من افاضل العلماء واکابر المجتهدين الذين ابلوا بلاء حسناً في اداء واجبهم كرجال دين واصلاح...

النجف:

وفي الحقيقة ان النجف خير بقعة صالحة لنشر الثقافة وبث المعارف؛ وموطن هادئ تتوفر فيه وسائر التربية الصالحة، وما تتطلبه من عزلة واطمئنان ولاهليها كفاءة خاصة واستعداد كبير

لهضم المادة العلمية واثقانها. وقد برهنوا في مواطن كثيرة على قابليتهم تلك، ليس في ناحية العلم فحسب بل في مختلف شؤونهم الاجتماعية.

ومن يقصد النجف يلحظ اثر هذه الظاهرة واضحاً في كل مكان، فالمقاهي التي يؤمها الناس عادة للاستراحة ولقضاء سويغات بين الشطرنج والنرد، وبين الهو واللعب، يتناوبون حول مناضد البليارد، يعملون الفكرة ويبدون المهارة ليغلب احدهم صاحبه وعليه يفوز..

هذه المناظر لا تشاهد هناك بل يرى الداخل الى مقاهي المدينة نوادي ادبية منها قد ازدحمت بالجالسين على شكل حلقات عديدة، وينصت الى لجاج فقهاء ويصغي الى حوار ادباء يتجادبون اطراف الحديث او يتجادلون فيما بينهم في موضوع من المواضيع العلمية وقد يندر ان تجد بين افراد السكان - مهما كان وضعياً في حياته - من لم يغترف غرفة من بضعة علوم يتقنها بطريق السمع وحضور المجالس.. وذا دليل قاطع يبعث على اليقين بان النجف غيرها من البلدان العراقية في هذا المضمار؛ ويغلب على الظن ان هناك نبوغاً فطرياً يتمثل في الكبار والصغار على السواء!!

ولعل اغلب سكان النجف هم رجال الدين وطلبة المدارس الدينية التي سبق التنويه عنها، وهم يمتازون عن عداهم بلباسهم الخاص وعاداتهم الدينية، وملازمتهم لأداء الفرائض في مواقيتها، وبث روح الأخلاق والفضيلة بين العامة تارة في المجالس والحفلات، وأخرى بالارشاد والقاء المحاضرات، حتى اصطبغت النجف بصيغة خاصة وطبع أهلها بطابع هو اقرب الى الزهد والتقوى منه الى حياة اللهو والدنيا.

والمدارس في النجف واسعة الانتشار في شوارع المدينة وأزقتها، منها القديمة والحديثة كالمدارس الضرورية ومدرسة السيد كاظم ومدرسة الصدر وغيرها ولبعضها مبان جميلة تكاد تكون أثرية، ولجملة منها مكاتب هامة تضم الآلاف من الكتب القيمة والمجلدات الضخمة ما بين خطي ومطبوع. وهناك مكاتب كبيرة لا تعد ولا تحصى منها العامة كمكتبة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء ومنها الخاصة كمكتبة الشيخ محمد السماوي، والسيد جعفر بحر العلوم وكذلك توجد بعض المكتبات الموقوفة كالمكتبة الحسينية وغيرها.

اسلوب الدراسة:

بعد ان وقفنا على تفصيل وجيز لتطورات الحالة العلمية ومناطقها وبعد ان عرفنا انها تكاثفت وتمركزت في النجف للاسباب التي بسطناها، يجدر ان نبحث فيما يتم الموضوع وهو ما نقصده في هذا البحث، ذلك هو موضوع الدراسة في هذه المدارس وطرق التحصيل فيها

ومدارج التقدم للطلاب. والحق - كما سنراه - ان اسلوب الدراسة كان وما زال في تلبيل واضطراب من جراء عدم النظام وفقدان المنهج المكتوب الذي يسلكه الطالب لاجتياز ايام التحصيل، فالدراسة ليست مقسمة الى اجزاء واضحة تطبق خلال مدة معينة، والتدرج في المعلومات لا ينحصر في امد محدود او لذلك اصول معلومة؛ بل هنا مشاق تتطلب صبراً وطول اناة لا يقدر عليها الا من كان ذا حظ عظيم. ويطول البحث لو توغلنا في تفصيلها وعليه فنشرها جهد محاولتنا باختصار.

الدراسة في النجف لا تنحصر في المجالس الدينية وحدها فرغم كثرة المدارس وما فيها من الغرف العديدة فان الطلاب تجدهم يتلقون العلم في بعض المساجد او الدور ايضاً وقد يحضرون بعض المحاضرات في الصحن الشريف وليس في هذه المدارس صفوف منظمة ولا كتب خاصة مقررة ولا استاذة معينون لها بل للطالب ان يقرأ من أي كتاب شاء وعند أي استاذ يختاره وفي أي مكان^(١).

يدرس الطالب في هذه المحلات دراسة مطولة ليستهدي في نهايتها الى اتقان علم الفقه، ويمكن القول بان الطالب لا يكاد يستغني عن أي علم من العلوم مما يختص بهذا الدرس أو يمت اليه بصلة، الا اللهم ما كان بعيداً كل البعد عن الاختصاص المذكور، كعلم الحيوان والنبات وعلم الكيمياء وحتى هذه العلوم فانا نجد من بين الطلاب افراداً درسوا مبادئها، واخذوا منها بنصيب. فاول ما ينبغي ان يدرس الطالب مقدمات علم الفقه، ويتطلب ذلك اتقان النحو والصرف والمعاني والبيان وبعض العلوم الرياضية والتاريخية ومن ثم يدرس التفسير والحديث والاصول، ثم اذا اتقن الفقه خاض غمار باب التشريع.. وفي هذه المرحلة من الدرس ينفق الطالب ليلي واياماً ويقضي اشهرًا وسنين ويسعى ما وسعت طاقته، فاما ان يصل الى غايته أو يقف في الطريق عن الهدف المقصود، فذلك ما ليس في الامكان تقديره ومرجعه الى مستقبل التحصيل.

والكتب التي تدرس في كل فن قديمه وحديثه؛ لا يأتي عليها الحصر. يقرأ الطالب منها ما تستجيده فكرة أساتذته وترغب طباعهم، والطالب يتدرج فيها من صعب الى اصعب، ومن معقد الى اكثر تعقيداً ويحضر الطالب مع رفقاته فيكونون حلقة تعد بالعشرات تجمعهم جامعة الدرس واستماع المحاضرة من المجتهد الذي يلقيها من فوق منبره المعد لذلك، ثم يرجع الطلاب كل الى غرفته لمراجعة الدرس والملاحظة، ومدارسهم هذه تكون بمثابة القسم الداخلي لهم.

(١) ماضي النجف وحاضرها ج ١ ص ٩٨.

وحلقتهم شبيهة بالصف الذي يكون في مقاعد العلم الحاضر من بعض الوجوه. وهي ان اختلفت فإنما تختلف معلومات الطلاب بالنسبة لبعضهم البعض، وفي سني الدراسة وقراءة الكتب، وهذا النوع من الدرس أطلق عليه في مصطلح رجال الدين درس «السطوح» ثم تعقبها حلقة اخرى اوسع بكثير من سابقتها فقد تضم المئات أو الألوف تبعاً لمقدرة الاستاذ وتضلعه بالمهمة التي يقوم بها والقدرة التي يتمتع بها على استنباط الحقائق واستدلال الأمر في الواقع من البحث والاستقصاء، وحيث سعة هذه الدراسة ففيها لا يلتزم هذا الاستاذ بكتاب واحد واثنين بل يبحث في المواضيع الهامة التي استقاها من مصادر كثيرة واستخرجها من كتب عديدة، واجاث طويلة عريضة بذل في سبيلها جهوداً كبيرة، واتعب فكره في تحصيلها وصاغها صياغة دلت على مقدار تضلعه بالعلم وسعة إطلاعه بدخائل الامور. وهذه الحلقة المسماة بدرس «الخارج» وان اختلفت فيا العالم بالجاهل فهناك ميزة بين الفريقين فالنابعة في درسه لا يبغض حقه ولا يتقدمه غيره؛ لأنه هو وحده الذي يعترف له العلماء بالعلم والمجتهدون بالفضيلة، عندما يأنسون منه - بعد الاختبار والمذاكرة - القدرة على التدريس والتأليف؛ ولا يصل الطاب هذه الدرجة إلا بعد ان يظهر اسمه في عالم التدوين والتأليف ويقدم رسالته (الاطروحة بالمعنى الحديث) فتنال الرضا والقبول. ومن حاز الاعتراف له بفضل حاز الزعامة العامة بالتدريس والافتاء، تلك الزعامة التي ليس فيها تمويه او تدليس، وهي الشهادة التي لم تنل الا بالكفاءة الصحيحة والاهلية الحقيقية الثابتة.

تقدير هذا الاسلوب:

لا شك ان الباحث في الموضوع ليجد - لأول وهلة - هذا الاسلوب من خير الوسائل الدراسية، فهي تجعل الطالب قويا في تفكيره العلمي قادراً على الاستنباط، يصل الى غايته بالدراسة الحقيقية، وينجح لا (باخذ الدرجات) وتمويه الواقع، بل بنتيجة الدرس والعمل، والتعمق الشخصي الذي يرجعه الى مصادر علمية كثيرة، ويقرأ من أجلها الكتب العديدة؛ التي تستغرق دراساتها بضع عشرة سنة. فالنجاح في هذه الدراسة موكول الى كفاءة الطالب الحققة واهليته الثابتة ليس كما في بعض المعاهد في العصر الحاضر التي يجوز ان ينجح فيها من ليس كفوا للنجاح، انما تساعده ظروف وتقابله صدف فينجح او ان يستعمل الغش او يتوسط فيبلغ الطالب مناه!!

ولعل من المفيد ان نذكر للقارئ الكريم اسماء بعض الكتب التي يدرسها طالب العلم في النجف الاشرف دراسة مستفيضة، بعد ان يدرس اللغة العربية ويحصل منها على اللباب باتقانه دراسة الكتب الآتية:

- ١ - شرح القطر لابن هشام.
- ٢ - شرح الفية ابن مالك.
- ٣ - مغني اللبيب لابن هشام، يتناول دراسة الادب بالكتب التالية:
 - ١ - شرح التفتازاني المطول في المعاني والبيان والبديع.
 - ٢ - الايضاح ومفتاح العلوم للعلامة السكاكي؛ وغيرها.
- على ان الطالب لا يتقن علم المنطق ما لم يدرس الكتب العديدة، ومنها:
 - ١ - حاشية الملا عبد الله على منطق التهذيب.
 - ٢ - الحاشية للخبيصي.
 - ٣ - شر الشمسية.
 - ٤ - منطق ابن سينا.
 - ٥ - واخيرا شرح المطالع.

ويأتي الطالب بعد هذه الدراسة التي تستنفد منه زمناً ليس بالقليل؛ على دراسة الفقه والاصول (التشريع الاسلامي) واذا دخل الطالب هذا الدور وانكب على الدراسة فيه؛ لم يترك كتاباً يشمل نظريات جديدة في علم الاصول او الفقه الا قتل الوقت في البحث والتمحيص فيه فمن الكتب التي لا بد له من قراءتها هي:-

- المعالم في اصول الفقه للشيخ حسين بن الشهيد.
- كتاب الشرائع للعلامة المحقق الحلبي.
- اللمعة الاصل والشرح للشهيدين الاول والثاني.
- كتاب القوانين للعلامة المحقق القمي.
- الكفاية للشيخ ملا كاظم.
- جواهر الكلام.

رسائل الشيخ مرتضى الانصاري (في الاصول العلمية).
المكاسب للشيخ مرتضى الانصاري.

ثم كتاب المكاسب؛ والمدارك؛ والرياض، ومستند الشيعة؛ وتذكرة العلامة؛ وجامع الاعرجي، وكشف الغطاء؛ والمبسوط؛ وغيرها كثير. ويكفي أن نذكر أن البعض من يقرأ في (الطهارة) فقط عشرة مجلدات؛ و(الطهارة) هي فصل واحد من علم الفقه. وبعض هذه الكتب من الكبر والاتساع تحتاج دراستها مدة طويلة؛ وينبغي فيها من الدقة والتعمق بحيث يعي فهمها من ليس له اليد الطولى في الاستقصاء والتمحيص هذه الدراسة؛ عدا

تلك التي يحضرها الطالب مع أقرانه وزملائه للبحث واستماع المحاضرات من جهابذة المهتمين كما مر بنا في اول البحث، والى مدى نجاحه في هذه الدراسة الاخيرة وسعة اجثائه، وكثرة تأليفه يعزى نبوغه؛ وتقاس درجة شهرته.

ولكن الذي يؤخذ على هذه الدراسة انها رغم ما فيها من كتب معينة ومتسلسلة يأتي عليها الطالب فقد اضطربت في الدراسة اساليب التطبيق فمدرسة تسير على الطريق الاستقرائية واخرى تنهج النظرية الاستنتاجية، وكل حزب يعتصم بحجة لتفضيل نظريته على غيرها، فسادت الفوضى وفشى الاختلاف مما اشغل العلماء بالمرء والبحث العقيم فوقفوا عند المماحكة في اللفظ والمعاية بالاعتراض. وهذه الحقيقة يعترف بها بعض المؤرخين فالطباطبائي يقول في مؤلفه «وعلى هذه الوتيرة كان سير الدراسة في النجف منذ الزمن الاول، وقد تخرج منها جمع غفير من العلماء الاعلام الذين كانوا غرة في جبين الدهر، ومفخراً للطائفة، بالرغم من الفوضى التي طالما يلهج بذكرها المتشدقون بزعم انها ضربة قاضية على الحالة العلمية»^(١).

نعم، مع ما في ذلك من فوضى فان هذه الدراسة هي التي كانت تخلق للعالم رجال الدين يقتدى بهم ويستهدى بهديهم، وهم كانوا ولاة الاصلاح غير ان الحالة لم تبق على ماهي عليه بل عادت تلك النهضة العلمية الى ما عهدناه فيها قديماً من الجمود والخمول فركدت الحياة العلمية وقصرت عن مجارة الزمن ومسايرة الحضارة العلمية التي تغلغت في شتى نواحي الحياة وليس من داع الى الاصلاح والكل يدركه. وما من اياه وهو عليه اذا يشاء قديراً!! والارجح في تدبير الموقف هو الرغبة المتأصلة في النفوس من ابقاء القديم على قدمه دون أن يجراً احد للاقلاع عنه او يجهر بالتنديد به، فالكل وجد هذا السبيل فسلكه والطريقة الوحيدة فسار عليها لا يحس مللاً ولا يشعر ضجراً ومن يدري! فقد يحس ويشعر ولكن الرغبة في الدراسة تبعث في الطالب الحزم والاقدام، فظلت التربية الدينية على حالها ولم تتبع سنة النشوء والارتقاء، أو تأخذ بمدارج التطور والتقدم لتبلغ بها الغاية المرجوة لها من الكمال... واحسب ان رجال الدين الذين بيدهم ادارة المعاهد ولهم في حكمها القول الفصل والذين عرفوا بزهدهم وتقواهم تحفظوا شديداً واحترسوا بالغ الاحتراس من تناول النظريات الحديثة والاساليب الفنية في التربية، والمنطبقة على اسس علم النفس الحديث، كما وان عامل الميل الى ما الفوا او اثاره على ما يجهلون!! هذا العامل القوي، قد اخذ مكانه من النفوس في ذلك المحيط فلم ينحرفوا عنه؛ ولا جرم انهم في هذه الحالة قد فقدوا الغريزة العامة، غريزة حب التقليد التي هي من

(١) الطباطبائي هامش ماضي النجف وحاضرها ص (٩٨).

العناصر النفسية تعد عملها في مثل هذا المجال. والبحث في هذا الموضوع لا يعيننا الى حد كبير فلا نخوض فيه وكل الذي يهمنا هو معرفة الأسباب التي ادى اليها الوضع المذكور والنتائج التي انحسرت عنه وما هو الواجب علينا اليوم.

التقهقر الدراسي:

بقيت الدراسة الدينية مطولة شاقة متعبة، ولم تتطور لا في الاسلوب ولا في التطبيق. كلا ولا في اختصار الكتب على اقل تقدير... ونحن ان جردنا الدراسة من جميع ما يشوبها من عيوب فنزهاها عن كل نقص، لكان ركودها على ما وصفنا من الجمود واستمرارها - مع الاسف - على النظم البالية اكبر عيب يمكن ان توصم به وهذا السبب نفسه ادى بها الى وهن كبير وتضاؤل الى ابعد الحدود، فاضحت تستتير بخافت الذبالة بعد ان كانت تحمل مشعل النور، وصارت الدراسة سطحية لا تفي بالقصد ولا تفيد بل بالعكس أدت إلى نتائج لم تكن تمر ببال فقد اصبح الاستاذ الكبير او الشيخ الجليل والعلامة الفاضل يحس من طلابه ان روح الجد والعمل فيهم قد انقلبت الى روح استهتار بالدرس وقلة اكرات بالمطالعة وكسل من هذه الجهة وميل شديد الى الاخذ بنصيب من حياة اللهو واللعب من جهة أخرى. وهذه الموجة التي غشيت قسما من الطلاب جلبتهم الى الفتور اكثر مما دفعتهم عن العمل فوجدوا انفسهم لا تطيق البقاء بين جدران المدارس الى جنب من حافظ على المبادئ الاساسية للدرس وصمم على المضي فيما هو فيه فانفصلوا عن المدارس يملكون من الرعونة ما يشجعهم على ارتياد الملاهي وارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن وكثرت في هذا الدور رؤوس عليها عمائم و«عقل»^(١) لو رفعت العمامة والعقال لوجدت تحتها جمجمة حمار ورأس ثور، استخدمت ذلك للتدليس باسم الدراسة وأجولة باسم الدين.. ينسلون الى العاصمة منهم من يطلب النيابة ومنهم من قصد التوظيف او الاستخدام...! ومن هذه الفضيلة قئة ثالثة تجلبت بجلباب الاثم؟ فتمصت روح كلب ولبست ثوب خنزير، وراحت تصوب سهامها بالكلام وتحرك اقلامها بالنقد للنيل من كرامة رجال الدين والاخذ عليهم بما هم منه براء. ثم تمادت في غيرها فاخذت تنهش بانيابها كل من يدافع عن الحق ويدحض الاباطيل من المصلحين او الصحفيين. ... نفوس ليست لها كرامة وشخصيات وضيعة ليست لها اية قيمة تتعرض لرجال لهم مكانتهم في المجتمع ولهم من التقديس والاجلال مقام. ان هذا الامر عجيب!!

هذا التدهور الشنيع في الاخلاق كان نتيجة حتمية لتلك الدراسة العمياء او هي بالتعبير

(١) عقل جمع عقال يلبس على الرأس فوق كوفية تعرف «اليشماغ» وهو لباس طلاب العلم المبتدئين.

الصحيح «التسكع العلمي» الذي لم يع الطالب فيه شيئاً ولم يهتد علماً، ان الطالب اذا تعلم الدين حق العلم وعرف ربه وادركه بقلبه، ونشأ على التوحيد الخالص والايمان القويم لاستحى من الله ان يأتي بالفاحشة او يرتكب الكبيرة او يستحل ما حرم الله.

عوامل هذا التقهقر:

يذهب شطر من الكتاب في شطط من القول إلى أن تأخر الشرق كان من بواعث تمسكه بالدين بصورة متطرفة ولم يأخذ بأسباب المدنية بالقدر الكافي، على نقيض الغربيين الذين اولوا هذه كبير اهتمامهم واخذوا من ذلك بالنزر اليسير. وعندهم ان الدين والمدنية ضدان لا يجتمعان؛ او هما قوتان متنافرتان، كلما امعن شعب في احدهما ابتعد عن الثانية بقدر ذلك الامعان...!! وهذا محض الخطأ الفاحش والقول المفلوج، اذ القول الصحيح هو العكس فان الدين الإسلامي ما هو إلا من صميم المدنية، وهو الشريعة الوحيدة التي نظمت شؤون البشر الاجتماعية والدينية، والواقع لا الغرب اختص بالمدنية ولا الشرق اغرق في الدين، انما نظر الغربيون إلى الدين بمعناه الواسع واخذوا الشرقيون بالمفهوم الضيق، فهؤلاء يرون ان المسلم المتمسك بدينه والذي له حظ في الآخرة هو من صام وصلى وقام بمراسيم العبادة خير قيام... هذا وكفى...!! اما الرجل في الغرب فلم يعرف الدين من ناحية العبادة فحسب، ولكنه ما زال يعتقد مبدئاً ثابتاً ويحمل عقيدة راسخة، هي ان الدين لا يشمل واجب الانسان نحو الله فقط، انما الدين مجموعة تشمل الاخلاق ومبادئ تنظيم الحياة الاجتماعية وهي واجب الفرد نحو ربه وواجبه نحو نفسه كما تفرض عليه واجباً نحو المجتمع الذي يعيش فيه، وعلى هذا فإنه كما يجب ان يتغلغل في النفس عقيدة ينبغي ان يتدخل في حياة الانسان العملية، في معاملاته وتجارته وفي ماله وربحه. ولذلك تجرد الفرد - مهما كان - إذا دفع الضريبة الرسمية للحكومة كضريبة الدخل وضريبة الاملاك او غيرها، وجد نفسه مضطراً لدفع الضريبة الدينية التي عليه، واذا ربح في تجارة خصص من تلقاء نفسه قدراً مقدوراً للمشاركة الخيرية، يدفعها سنوياً للكنيسة وغيرها من المدارس الدينية. وما من غني او مثر يموت الا اوصى قبل موته بما يراه مناسباً وعلى قدر منه، مما يملك موزعاً ذلك بين المشاريع الدينية ومؤسسات الخير والاحسان. وفي الشرق كثير من الأثرياء والموسرين ولكن هل فيهم من يحمل مثل هذه الروح اليوم...؟ كلا...! فان هذه الروح تضاءلت حتى امكن القول انها ماتت او تكاد تموت، فالمدارس الدينية التي استمرت تستمد قوتها من موارد معينة ومصادر مختلفة، نظمت على عهد الشيخ الطوسي او قبل ذلك والطلبة الذين كان ينفق عليهم من بيوت المال التي تجمع الذهب والفضة من كل ناحية بشتى الوجوه الشرعية كالزكاة ومرد المظالم وحق الامام وغيرها.. بعد تلك الظروف اصبحت المدارس تفتقر

الى كل ذلك، واضحى طالب العلم يشكو الفاقه ويعاني ما يعانيه من شظف العيش وتراكم الديون عليه. وهذا هو السبب الرئيسي الذي أدى بالدراسة الى الاضمحلال وهي ان استبقت هذه الحياة العليله فانما ذلك بعامل المحافظة على بعض الموارد المالية المنتظمة التي اهم ما فيها المورد الذي ما زال حتى اليوم يوزع بين طلاب العلم في النجف وكربلا وهو التخصيصات التي اوقفها احد الاشخاص في الهند لطلبة العلم تصرف لهم كل ثلاثة اشهر مرة، وتبلغ (١٢٠) الف روبية سنوياً، وهو مبلغ ضئيل اذا ما وزع بين عدد الطلبة الكبير..!

ومن سخریات الايام ومهازل التطفل ان يقترح (فضولي) على صفحات الصحف بتوقع (احدهم) فيناشد الحكومة بمفاتحه حكومة الهند على ادارة هذا المبلغ لحساب الاوقاف فتؤسس به وتقوم بنفقات معهدين دينيين في النجف وكربلاء..!!

ما اكثر المعاهد الدينية في النجف وكربلا وما اكثر الطلبة فيها... ولعمري اذا كان قانون الأوقاف الجديد سيحقق فتح مدرستين دينيتين ثانويتين من قبل مديرية الاوقاف، يقبل المتخرج فيهما الى كلية دار العلوم حيث يمنح شهادة (الدكتوراه) في الشريعة فهل تعتمد الاوقاف على تلك المبالغ الموقوفة على الطلاب...؟ واذا كان الأمر كذلك فهل من حاجة الى تعديل قانون الاوقاف...؟ ولو سلمنا جدلاً بكل ذلك فهل يمكن باي حال من الاحوال ان يتصور استيعاب المدرستين جميع الطلبة الموجودين والذين يربو عددهم على الأربعة آلاف طالب علم...؟؟ اما اذا قيل بقبول عدد منهم دون الباقي، فماذا يكون مصير هؤلاء...؟ ان ما يقتضي به النمط؛ ويرتضيه العقل، ويطابق ما يتوقع الحصول فعلاً، هو ان تفتح مديرية الأوقاف العامة المدرستين المذكورتين الى جانب تلك المدارس العديدة؛ وتنفق عليهما من المخصصات التي تخصصها في ميزانيتها للغرض المذكور؛ وهذه الخطة الحسنة والبادرة المحمودة هي التي دعت مديرية الاوقاف ان تقدم الى البرلمان لائحة تخولها حق القيام بالاصلاحات الدينية والتصرف بالاموال الموقوفة تصرفاً يعود بالخير على الصالح العام.

على ان رأي (المقترح) رغم ما ينطوي عليه من حسن النية فهو ليس من الوجهة بمكان.. ورغم ذلك فقد زعم ان بعض المجتهدين قد بحثوا في المشروع واقروه^(١) واني شخصياً ان لم اقف على حقيقة المسألة بالنسبة لمن يذكره (احدهم) فاني متأكد جداً ان العلامة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء لم يبحث في المشروع على الصورة المذكورة؛ ولم يعرف احد انه اشترك في البحث مع الشخص المذكور...

(١) جريدة البلاد العدد (١٥٦٦) بتاريخ ٢٨/١١/٩٤٠.

هناك عامل آخر لا يقل أثراً عن سابقه كان سبباً - بصورة غير مباشرة - أدى الى وهن الدراسة الدينية فارجعها الى حال ليست لها عهد به من قبل، وهذا السبب منشؤه الطلاب الذين يدرسون العلم ليتفقهوا في الدين!! من المعلوم ان القسم الاكبر من الطلبة هم العرب وفيهم من الايرانيين والأتراك والافغانيين وغيرهم عدد لا يستهان به. وكل من هؤلاء ينحون نحواً خاصاً في درسه ويستهدف هدفاً معيناً، فكان الطالب العربي اذا اشتغل واكمل التحصيل خرج من النجف وعاد الى مسقط رأسه او جاب البلاد واستقر في موطن هو بحاجة الى امثاله من الرجال حيث يكون هو الكل ويغدو فيه ولي الأمر قوله الحكم وحكمه الفصل، وفي ذلك لا نزاع، وهو خلال ذلك يأتيه رزقه رغداً لا يشعر بالضيق ولا يحلم بالعوز او الفاقة. اما اليوم وقد انصرف الناس عن الدين واهله، فان طالب العلم بعد دراسة تمتد مع عمره وتستفد منه ايام شبابه يجد نفسه بين منفعة خاسرة وامل ضائع، والدراسة التي كرس فيها حياته بين مطالعة وتحضير واستقصاء ودرس فامضى فيها دور شبابه و أشرف على الكهولة حتى عهد الأنتاج، تذهب كأنها حلم في منتصف ليل، اذ لا يجد ما كان يجده اسلافه العلماء من التعزيد والمؤازرة من عامة الناس فكان كمن اضاع كل شيء فما افاده ولا استفاد...

وهذا ما فت في عضد الدراسة الدينية ومال بها نحو التضاؤل والاضمحلال.. ومع ذلك فلا يندر ان تجد من وطن نفسه على هذه النتيجة؛ وعكف على الاستفادة بدراسته وسما في عالم الزهد والتقوى مفضلاً حياة الجد ورضى باللذة الروحية وقناعة النفس عن الدنيا بديلاً ومن هؤلاء العلامة الحجة الشيخ محمد جواد البلاغي - قدس سره - بيد ان الكثيرين من عزفت انفسهم عن هذا الضرب من الحياة ورغبوا في التحرر من قيود الدين وتقاليد الدراسة؛ فكم ترى ممن يتأبط الكتب ويقرأ سنة سنتين في علم المنطق وعلم الأصول ثم تسأله فتراه بعيداً عن المنطق جاهلاً تعريف الأصول ويغادر الدراسة واذا الرجل العامي أكثر ورعاً منه وتقوى.. وكم من هذه الفئة من يتوجه الى العاصمة فيقضي في فنادقها ليلة، وتذبذب طول النهار ما بين دوائر الحكومة يطرق أبواب التوظيف بالراتب البسيط متحملاً في سبيل ذلك ما تأباه نفس العزيز.

أما الطلاب غير العرب فكلهم في الحالة سواء.. ولناخذ الايراني مثلاً فإنه بعد ان انقطع ما كان يجري له من المرتب المنتظم يأتيه من مصادر معينة في موطنه ومن قومه فيصلح به حاله وينظم أمور معاشه، لم يعد يمدد ذلك المنبع فيعيش، ولا يحصل على المخصصات الكافية فيستمر، وهذا ما أوقف سيل الهجرة الى النجف قصد الدراسة المذكورة ثم اضمحلال أهمية الدين، سيما في مجال السياسة في الدول الشرقية الحديثة، غير وجهة المستقبل بالنظر لرجل

الدين، فقد كان يرجع الى وطنه يتزعم فيه أو قل يكون فيه ملكاً بغير تاج، الى جانب صاحب التاج له وإليه يرجع الأمر كله، وهو يشارك في مركز سلطنة الدينية مركز السلطة التنفيذية، وعليها في جميع الأحوال أن تكسب رضاه وتعمل ما هو يراه ما إذا اصطدمت الآراء السياسية برأيه او عارضت فكرته وعملت ما لا يرتئيه فهناك الطامة الكبرى والخطب الجلل والتاريخ يذكرنا بوقائع عديدة من هذا القبيل. اما في العصر الحاضر فالحالة على العكس تماماً إذ أضحى المنبوذ في هذه الدول هو رجل الدين.

وتوجد عوامل أخرى تضطرننا التقاليد الى عدم الخوض فيها، وسنأتي على بعضها في سياق الكلام في الاعداد القادمة ان شاء الله.

فكرة الاصلاح:

ولئن ابتغينا السير مع فكرة الاصلاح من مبدئها ولئن كان علينا لزاماً ان نرجع مع التاريخ بضع خطوات ونستعيد منه عدة سنين؛ لنلقي النظرة على عهد المغفور له جلاله الملك فيصل الأول، فهو أول من فكر في اقتصار هذه الدراسة على اللباب وتنظيمها على شكل لا يعدو الأسس المستحدثة والأساليب، مع المحافظة على ما لها من شعائر وتقاليد. وكان ذلك في سنة ١٩٢٥ حينما زار الملك مدينة النجف الأشرف للمرة الثانية، وعرف قابليتها العلمية وتفوقها الثقافي، ولما اجتمع العلماء الاعلام بمجالاته ابلغهم رغبته في تأسيس جامعة دينية يتلقى فيها طلاب العلم دراستهم على غرار ما في الجامع الأزهر، وتكون مبعثاً لما تطلبه الحكومة من رجال الأدب وذوي الثقافة العالية لمعاهدتها الرسمية. وقد روج هذه الفكرة وغذاها وزير المعارف يومذاك، وهو العلامة الجليل معالي الشيخ محمد رضا الشيبلي، وقد ارتأى جلالاته ان يخصص مبلغاً قدره ٥٠٠ الف روبية من غلة الأوقاف لهذه الغاية بعد ان تبرع من كيسه الخاص بمبلغ خمسة وعشرين ألف روبية اودعت لدى معالي الحاج محسن شلاش. ورغم ان هذه الرغبة لم تسلم من معارضة الآراء الرجعية فقد كان لها صدى الاستحسان ولاقت التحييد والتأييد...!

بيد ان أعمال الراحل العظيم السياسية كانت جد واسعة لدرجة تشغله فيها عن غيرها من الواجبات وقد تلهيه احياناً عن واجباته الشخصية فتنسيه أوقات طعامه واستراحته. وحيث لم تهيم الظروف من ينفذ تلك الرغبة فلم تبرز الفكرة من حيز الخاطر الى مجال التنفيذ. واقتصر ساكن الجنان على ايفاد زمرة من شباب النجف للدراسة في الجامعة المصرية وكلية الآداب فكانوا من أحسن من تلقى رسالة العلم، وضربوا الرقم القياسي في السعي والنجاح وكانوا المثل الأعلى للطالب الرزين، وما زالت الحكومة العراقية تفخر بهم وتستفيد من خدماتهم في

معاهدنا حتى اليوم.

ونظراً لمنزلة الراحل العظيم من الاجلال والتكريم في تلك الأوساط فإن رغبة جلالته ما زالت الفكرة التي يسعى الى تحقيقها أفاضل الرجال والمنورون من الشباب في النجف الأشرف. وهم مصممون على المضي في مهمتهم مهما اعترضتهم من صعاب، واكتأدت في سبيلهم العقبات. ومن يشاء الامل في النهوض وما يدل على الفوز ان النفوس أصبحت مهياًة لدعوة التجديد، ومرحبة برسالة الاصلاح، وهذه بوادر النهضة تظهر للعيان، فتأسست لغرض نفسه مدرستان دينيتان على نهج لا يمنعه التمسك بتقاليده عن طلب الجديد، والأخذ بأساليب البحث الحديثة؛ مدرستان تعملان ابتغاء للاصلاح ومجراة المرقى العلمي في مجالاته العليا، ومسايرة الحركة العلمية فيها يتصل بالحياة العصرية اتصالاً نبيلاً يعينه على تأدية رسالته في الاصلاح الاجتماعي من جهة، ورفع العلم الى منزلته السامية وما تقتضيه من الهيبة والتقديس من جهة أخرى. وهذا الاتصال سيذهب _ ولا شك _ العقل في أكمل مجاله ويساعد على نيل الحقيقة في أصح الصور وأدق المعاني بمختلف الأشكال وشتى الأساليب... وكذلك هجر ما لم يتصل والروح الاصلاحية بسبيل. ولا غرو ان الاحساس بالنقص والرغبة في تلافيه أولى خطوات السعي نحو الكمال.. وهذا ما يخلق روحاً تنفس بالامل وفجراً ينذر غياهب الظلم بالانقشاع ويشر بزوغ النور..!!

مدرسة كاشف الغطاء:

قام بالمدرسة الأولى _ حديثاً _ العلامة الكبير حجة الإسلام الشيخ شيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء متعنا الله بطول بقائه، من كيسه الخاص.. والعلامة كاشف الغطاء ذو الوجه المتبسط والبشر الرزين، ليس بالكهل ولا بالشيخ، وهو يكاد يتجاوز دور الكهولة ويدخل في سن الشيخوخة. يعلوه جلال الهيبة ووقار النفس، ويتمثل فيه الخلق الكريم. وهو ان قيل انه شيخ بسنه فهو شاب في عمله وحزمه، تراه قد أخذ من الشيخوخة رزانتها وتجاربها وما بها من صائب رأي وبعد نظر، ونال من الشباب قوته وحرارته، وجرأته الصريحة في الاندفاع نحو الاصلاح والميل الى التطور والتجديد، ذلك ما يجعله على خلاف ما عرف به رجال الدين من المحافظة المسرفة على ما هم عليه. والحقيقة ان المصلح الديني في الاسلام لهو ذلك الذي يعلم ان اتمام رسالة الدين انما هو اصلاح الدنيا، على ان يؤخذ هذا بالتحديد بمعنا الحق ويفهم بمجاله المعقول.. ونذكر مما يتصل بالبحث ان المرحوم الشيخ محمد عبدة التلميذ الأكبر للعلامة السيد جمال الدين الأفغاني كان هو الأول قد زحزح نفسه من القيود التي تقيد بها من عاصره من الأزهرين، وغيرهم من العلماء في القاهرة.

ونحن اذا ذكرنا اسم السيد جمال الدين الأفغاني عرفنا ذلك الفيلسوف العظيم والعلامة الجليل الذي امضى مدة طويلة بدرسه وتلقى الشطر الأوفر من ثقافته وعلومه في النجف الأشرف وجاب الاقطار الاسلامية بعد ذلك داعياً للاصلاح، وقد شخص الداء وعرف الدواء، فكان لرحلته أثر بين في شتى نواحي الحياة الاسلامية سيما الدينية منها حيث عد أثره في الدين أشبه بالانقلاب؛ شأنه ذلك شأن (مارتن لوثر) في اصلاحه الديانة المسيحية، وأجمل ما ينسب اليه قوله:

ولست أبالي ان يقال محمد ابلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد اردت صلاحه مخافة ان تقضي عليه العمائم

أسس كاشف الغطاء مدرسته على غرار الجامعات الدينية الراقية الحديثة ولكن مع المحافظة على رونق القديم وجلاله والحرص على هيأته وبساطته، وقد أطلق عليها اسم عائلته وألحق بها مكتبته النادرة المعروفة، وأناط أمر التدريس فيها برجال لهم مكانتهم في المحيط وممن عرفوا بمقدرتهم العلمية الواسعة في البحث والتدريس. وهو بنفسه يشرف على سير التدريسات ويقضي أكثر أوقاته فيها.

وغايته السامية حفظه الله _ وقد أدرك مواطن النقص وعين نقاط الضعف في أساليب الدراسة القديمة _ تقويم ما تقادم بها من أود، واصلاح ما أصابها من عطل، بمناهج تلائم التطورات الحاضرة وذلك بنبذه جانباً كل ما يؤخر الطالب الديني أو يطيل في مدة تحصيله سواء من جهة التأليف أو التطبيق وجعلها بحالة تتفق والأوضاع الحديثة.

ويسرنا اعلان نجاح هذه المدرسة التي تتقدم باطراد.

منتدى النشر:

والمدرسة الثانية هي مدرسة منتدى النشر والتأليف قام بتأسيسها ثلة من خيرة الشباب الدينيين المثقفين الذين اتوا دراستهم الدينية، وثقافتهم الاجتماعية، عقدوا العناصر على القيام بهذا المشروع المقدس والواجب العظيم والمضي به مهما احتاج الأمر الى بذل جهد وكبير عناء، يعاونهم في تأدية الرسالة بعض الشيوخ. ولا جدال في ان الشباب هو حياة الأمة وقلبها الخافق ويدها التي بها تعمل وهو العين التي بها تبصر وترى!! وتظافر الشباب قوة توقظ الشعور، ونور يهدي الجمهور. والشباب في كل عصر ودور؛ هو الذي يتزعم حركات التحرر من القيود ويعمل على اليقظة والنهوض؛ وبقوته تكسر الأغلال وبعزيمته تحطم الأصفاد، ما في ذلك من شك وهو ان استهدى فانما يستهدى بتدبير الكهولة وآراء الشيوخ؛ وما الشيوخ الا شباب الأمس،

وشباب اليوم هم شيوخ الغد...!! وان قيل ان الشيوخ هم الاصل فالشباب هم الفرع، والشجرة أصلها الجذع ثابت بالأرض راكن الى السكون، ولا تثمر الا بالفرع ولا تورق بسوى الأغصان وان كان الجذع هو المدد والسند للأغصان فان الفروع هي التي تعاني حركات الرياح وهزات الأعاصير، فالشباب والشيوخ أحدهما يكمل الآخر الى حد ما في مجال الحياة.

استدراك:

ولكن بعض الشباب، يستوي في ذلك شباب الدين والدنيا، يذهب في الغلو برأيه في الشيوخ الى أبعد حد، فيرى فيهم صورة الجمود ومثال الكسل والمحافظة على القديم والسجل الدارس، ويراهم حجر العثرة في طريق التجديد على اختلاف ألوانه، ويحملهم تبعة الكثير مما أوقفهم عن المسير، وأخرهم في طريق المدنية والطريق طويل...! ويعتقد البعض أنهم جند المرجعية ومعقلها ومذخر تموينها ومادة حياتها بل ومصدر الدعاية لها... ويتدخل هذا البعض في الحياة الخاصة للشيوخ من رجال الدين فينتقدهم في مآكلهم ومشربهم وفي لباسهم وما يلزمهم فيه، ويأخذ عليهم أن حرموا على بيوتهم الراديو او لم يؤثثوا مساكنهم بالكهرباء ويجهزوها بالتلفون.... ولعمري هل يسلم العالم الديني اذا كان في بيته كالرجل العصري له غرفة استقبال فيها جهاز المسرة^(١) من جهة وآلة الراديو من الجهة الأخرى، وله غرفة طعام ذات منضدة وكراسي ويستعمل في طعامه الشوكة والملعقة والسكين، وفي بيته غرفة للمنام ذات أسرة عليها وثير الفراش...؟؟؟ كلا...! والله ان رجال الدين في نظر هذا البعض على اي حال من تكيف أنفسهم ملومون...! فيصدر عليهم أحكاماً رهية قاسية قل من يجرؤ على مجاهرتهم بها؛ أو التظاهر باعتناقها... وهذا ما يحمل الشيوخ على نبذ الشباب ومعاكستهم ومقابلتهم بمر الانتقاد ونسبتهم الى سفاسف الأعمال. ومما يبعد الشقة بين الحزبين نزق بعض الشباب المزري ذلك النزق الذي دفع بهم الى اللهو أكثر مما حادهم عنه وأنغمسوا في الملذات أكثر من اعتكافهم على الدروس وتهاونوا في أمور الدين أكثر من تمسكهم بمطالب الدنيا وتوغلوا في الموبقات وقدروا ان يخرجوا منها وما هم منها بخارجين...

والحقيقة انها من قشور مدينة الغرب اغتر شبابنا بها وانجرف بتيارها، تاركاً واجباته الدينية بسببها مهملاً اخلاقه من أجلها؛ وربما وجدت بين شبابنا من فاق زميله الغربي ممن أصيبوا بمرض التجميل والتحسن؛ شباب ناعم غريض، أقرب الى التأث منه الى الفتوة؛ يستعمل المساحيق والحمرة؛ ويحلق ويتزلف ويتعطر، ولا يخرج الى المدرسة الا مستعداً

(١) آلة التلفون.

كاستعداد العروس ليلة الزفاف وهناك مذهب يدين به هذا الشكل من الشباب هو ان المدنية والدين على طرفي نقيض، فمن كان منهم متمدناً أو على أهبة الدرس والتحصيل فعليه أن ينبذ دينه وراءه ظهرياً، لشدة ما هم فيه من غفلة عما يعملون، ولو تدبروا الرأي لوجدوا أنفسهم خبط عشواء يخبطون وهاما يقوله أشهر علماء الاجتماع في أوروبا الأستاذ (هكسلي) من وجوب سير العلم والدين جنباً لجنب لفتح طريق المدنية الحديثة، من فصل نشره في احدي المجالات الكبرى:

«... وان أصحاب النظريات العقلية في القرن التاسع عشر كانوا على يقين من ان ما يسمونه (النزاع بين العلم والدين) سينتهي حتماً بهزيمة الدين... ولكن تأريخ العصر الحديث اثبت ان هذه النظرية لا أساس لها؛ ذلك ان العلم لم يهدم الدين، وانما نقله فقط من ميدان الى آخر، وقد كان من أخطاء أجدادنا أنهم كانوا يتصورون العلم والدين عدوين لدودين يحارب أحدهما الآخر، وان العلم أمضى أسلحة من الدين، وانه سيودي، غير بعيد، بالدين حتى يغدو جثة هامدة لا روح فيها. وتلك صورة خاطئة فالعلم والدين ليساعدوين ولكنهما قوتان عظيمتان من قوى الطبيعة في تقويم المدنية».^(١)

غير ان شبابنا تدهور بعضهم على الوتيرة السابقة الاشارة اليها، فلم يتبصروا في العواقب ويقدروا سوء النتيجة، ومن الطبيعي ان الانغماس في ناحية والانهماك في الأخذ بها يؤدي حتما الى التقصير في النواحي الأخرى. ولهذا يعزي تأخرنا. وعلى نفسها جنت... وللبحث في هذا الحديث شجون وشجون يطول بمن يكتب فيه الالم.

عود الى صميم البحث:

كان من حقنا ان نأخذ على الشباب هذه الناحية، ونتهجم عليهم بخروجنا عن الموضوع، وانا لنتهز هذه الفرصة فنعترف ببعض الحق للشباب فيما ينتقدون به الشيوخ كما نقنع بحجة رجال الدين حين يرمون الشباب بما يرمون!! ونعود الى البحث فيما نحن بصدده فنقول: ان المدرسة التي ذكرناها، وكذلك مدرسة كاشف الغطاء نهض بها جمع من الشباب الروحي وتقدموا فيها نشطين في مجال العمل مشمرين عن ساعد الجد لا يلوون على شيء، فهاؤوا للجمعية منهاجاً ثقافياً خاصاً؛ وهم لا يرومون من وراء ذلك غير غاية سامية وقصد من أشرف المقاصد وذلك بان يخلقوا للمدرسة شخصيتين معنويتين هما شخصية دينية، وشخصية علمية ثقافية، ولا يمثل هذه الشخصية رجال احترفوا الدين والعلم صناعة كالنجارة والحياكة

(١) مجموعة الرسالة السنة الرابعة ص ٩١٣ ت ١/١/١٩٣٦.

يمهرون فيها بالحذق والمران؛ وهم في الحقيقة لا يملكون من الدين غير عمامة كبيرة وقباء... ولا يملكون من العلم غير جبة واسعة الاكمام!! بل يكون الشخصية الأولى رجال بقدر ما لهم من سعة الاطلاع في العلم يتمتعون بنصيب من التفقه في الدين... ويمثل الشخصية الثانية عدد من العلماء الباحثين ذوي الانتاج النافع ويمتازون بالاستقلال في البحث والتفكير. والحقيقة التي يجب ان يدركها الرجال العاملون هي ان عليهم واجباً من أشق الواجبات هو ان يبعثوا المكتبة العربية القديمة، والأدب العربي المهجور بحلل جديدة وأساليب مستحدثة، فان في الكتب الكبيرة الصفراء ذات الطبع الناعم والخط القديم لعلماء جماء، ولكنه مطمور تحت انقاض الاساليب الغابرة، بشكل لا يستساغ اليوم؛ وذلك ما يتطلب ان تنصرف فئة من العاملين الى دراسة مثل هذه الكتب وتفهمها واستخلاص موادها العلمية، ليتسنى لها عند سnoch الفرصة، اعادة طبعها وعرضها بشكل جديد يلائم العصر ويسهل للدرس والاستفادة.

نظام مدرستي كاشف الغطاء والمنتدى:

لكل من مدرسة كاشف الغطاء ومدرسة منتدى النشر نظامها الخاص بها، وكلا النظامين يتفقان من حيث المبدأ والاسلوب ويفترقان في كون الاولى مدرسة علمية دينية، والثانية مدرسة دينية تابعة لجمعية علمية ادبية ويهمنا في هذا الموضوع ما يتفقان فيه، فقد قسمت الدراسة فيها - من حيث النظام - الى صفوف متدرجة يتعاقب فيها الطلاب ويتابعون بامتحانات يجتازونها في فصول معينة خلال سنتهم الدراسية؛ ولهم امتحان نهائي تخلفه عطلة صيفية طويلة، كما وان للطلبة بعض العطلات يتمتعون بها، تلك التي يعينها النظام ويتطلبها عناء الدراسة.

.. وتؤخذ بنظر الاعتبار معلومات الطلبة، وهي ما يحصلون على درجات بها خلال امتحانات شهرية واختبارات فصلية منظمة، وفي الامتحانات النهائية تطبق في اجراءاتها ونتائجها جميع التدابير المرسومة في نظم المدارس الرسمية والعالية، ويعطى للمتخرج منها شهادة خاصة تؤهله لدراسات معينة، وتعتبر في معاهد مختلفة، مع العلم بأن اتقان الطالب للادب العربي شرط اساسي للتخرج، ومقياس الاتقان هو ان تكون للطاب اهلية - الى حد ما - للبحث والتأليف والنظم واجادة الالقاء. اما الدروس التي يدرسها الطلاب فهي تلك العلوم التي سبق التنويه عنها في صدر البحث مجردة عما يشوبها من اسهاب واطالة التشويش..

نواة الجامعة:

وظلت المدرستان تنموان حتى مرور سنة على ولادتهما وعندها ارتأت وزارة المعارف حينذاك الغاء مدرسة المنتدى والاكتفاء بمدرسة العلامة الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء،

وهكذا كان.. غير ان صاحب المعالي السيد صادق البصام (وزير المعارف الحالي) وهو الوزير الحازم وزعيم الاصلاح العلمي عندما تقلد زمام الامور في وزارته اعاد النظر في القضية، ورأى ضرورة وجود مثل هذه المدرسة. وعندها اصدر امره بالاعتراف بها ثانية فعادت اليها حياتها الرسمية بعد ان سلبت منها لزمان يسير، وقد قررت الوزارة مساعدتها بمبلغ قدره خمسون ديناراً يدفع لها سنوياً، بعد ان اسبغ معالي الوزير عليها نظرة العطف، وساعدها مساعدات خاصة مما جعل الالسن تلهج بالشكر له والثناء عليه. فاصبحت المدرستان تعملان اليوم سوياً في حقل الثقافة الدينية والعلمية في النجف الاشرف عاصمة الادب في العراق؛ ويبلغ عدد الطلاب في المدرستين ما يقارب المئتين وخمسين طالباً، وهو عدد جد مسر وباعث على النجاح المطرد لمدرستين في السنة الثانية من افتتاحهما. والأمر كبير في ان تتقدم كل منهما في تطبيق منهاجها وسيرها في طريق الثقافة. والحقيقة التي لا غبار عليها تبشرنا بمستقبل باسم وزاهر، يؤكد قابلية النجف الاشرف لتكوين جامعة دينية ادبية ترنو اليها الفكر وتصبو نحو تحقيقها النفوس.

وهناك مشروع ثقافي آخر يدأب لتحقيقه بعض رجال الأدب في النجف وذلك بتأسيس معهد بأسم (دار النشر والتأليف) له غايات واسعة النطاق؛ ترمى الى خدمة الثقافة والعلم خدمة تؤدي الى النهوض بالادب الى درجة تتناسب والعصر الحديث. ولعل مما يبعث على تحقيق الفكرة، فكرة الجامعة كون هذه المعاهد خير نواة صالحة يتعهدا المصلحون بالسقي والارواء، فيمهدون لها سبيل النمو وطيب الحياة سيما وان القائمين بادراتها يدركون ان الاحترام الذي يمنحه الناس لهذه المعاهد يرجع القسط الاكبر منه الى معنى ديني فيه.

ولا بد لنا ونحن نختتم هذا الفصل ان نسأل الله تعالى ان يأخذ بيد العاملين، فيخلصوا النية، ويصدقوا الجهاد ويحسنوا اداء العمل، كما نأمل ان تجمع هذه المعاهد بين الثقافة الاسلامية الدينية وبين ثقافة العصر وعلومه فيكون رجالها في طليعة البانين للهيئة الاجتماعية الانسانية على اساس العلم والفضيلة وذلك لاشك من اقوى العوامل لحفظ كيان الامم وضمان راحتها وتهيتها رفايتها، وذلك هو من واجباتها في الصميم وهو ما نصبو اليه في حياتنا ونحتاج.

المشكلة والوصول الى حلها:

والمعاهد من هذا النوع تبدأ حياتها بهذا الشكل، لاشك يتطلب نجاحها بذل جهود كبيرة لتذليل الصعوبات الكثيرة وقطع عقبات كأداء تعترض امامها الطريق. وانه لحري ان تتظافر

القوى للنهوض بها سيما وهي في دور الطفولة، يخشى عليها ابلغ الخشية من ضروب الآفات واختلاف الاهواء.

وليس مما يقبله المنطق ويعقله التفكير الصحيح ان تعيش مدرسة لها آمالها بمستقبلها ويعول على خدماتها العظمى وهي لا مورد لها يغذيها فتستبقي به الحياة، ومهما يكن لدى القائمين بها من حول وطول فلا يمكنهم ان يمدوها الا بضئيل من المال لا تقوم عليه، ولا جرم انه لواجب من اشق الواجبات العامة ان تقوم هيئة بمشروع خطير، دون مساعدة خارجية تساعدها بالحمل لتقوم به، والواجب فتضطلع باعبائه وغير بعيد عن ذهن القارئ الكريم مدى الصعوبات - مادية كانت أو ادبية - تلك التي يتطلبها نجاح المدرسة، والمراحل التي تريد اجتيازها، ومقدارها القوة المطلوبة لتحطيم القيود التي تحول دون سيرها في عالم الثقافة ومجال الوجود وقد يستحيل ذلك اذا ما عولت على جهود مؤسسيها وحدهم، وما لم تتناولها الاعانات من نواح اخرى فقد يصعب تحديد امد اتساعها ومدى حياتها، مهما كانت اليد الفردية القابضة عليها قوية والمال الذي تدره لحياتها وفيراً.

والعراقيون من سراة القوم وذوي اليسار ليست لهم تلك اليد الطولى في احياء مشاريع خيرية صرفة ليس من ورائها غير جزيل الثواب، ولم تعد لهم عادة في مساهمات مستمرة او تخصيصات معينة في مثل هذه الاحوال بالرغم من ان تاريخ المشاريع الخيرية يعرض علينا صوراً جميلة وصحائف بيضاء يثلج لها الصدر وتطيب النفوس سجلها التاريخ لاجدادنا بمداد الفخر والاعجاب.

وفي مثل هذا الظرف يجمل ان يلتفت ذوو الرأي الى عقد اجتماع يقررونه فيما بينهم ويدعون اليه الاغنياء والموسرين لرسم خطة ناجحة في إيجاد وسائل المساعدات المالية اللازمة لادامة مثل هذه المعاهد الدينية. وخير وسيلة لاستقرار حياتها واستقلال مواردها، وجعلها شخصية معنوية قائمة بذاتها محتفظة بكل معاني الاستقلال، هي ان توقف لاجلها بعض العقارات او تملك بعض الابنية والمسقفات فيصرف ريعها سنويا للمدرسة وطلابها ومن يقوم بها من الاستاذة والمعلمين.

واجب مديرية الاوقاف:

إن القروض المالية التي يمنح اليها الاغنياء من المسلمين في حياتهم الدينية كالخمس والزكاة وغيرهما من التبرعات الاختيارية كالهبات وانواع الوقف كلها ادخلت في التشريع الاسلامي لغايات سامية محصلها توثيق عرى المودة واواصر الاخاء بين افراد المسلمين من جهة

وتثبيت كيان الدين الاسلامي الحنيف على اسس معينة ذات موارد معينة تدر للاشخاص الفقراء وللمؤسسات العلمية والدينية ما تحتاجه من غذاء وما تتطلبه من رعاية وخدمات، من جهة اخرى. وبعد ان اختصت الحكومات بالسلطة الزمنية وانزوى الدين برجال قدر لهم ان يكونوا رجال دين سلبت السياسة منهم ما يختص بها من مال لتسيير دفة الدولة وتبدل الحال من خمس وزكاة الى ضرائب ورسوم.

وحافظ الدين ورجاله على المورد الخاص به وبهم كالوقف وبعض الهبات التي يؤديها الاغنياء من المتدينين المتزمطين في الدين. وبما ان هذه الحقوق غير ثابتة على قرار وهي في ارتفاع وهبوط، وانقطاع واستمرار، تبعاً لما تستقر عليه الاوضاع المالية لاولئك المتبرعين، فقد كان الوقف هو المورد المنتظم الذي يعول عليه في ادارة مثل هذه الشؤون.

ذلك لأن الوقف لا يمكن بأي حال من الاحوال ان يكون من اختصاص السلطة المدنية وعلى هذا جرى الوضع من يوم ثبت الوقف. ولقد خصصت الحكومات كل منها مؤسسة لادارة شؤون الوقف وتوزيع وارداته في جهات البر والاحسان وتنظيم الجوامع والمعاهد الدينية ومن فيها من طلبة العلم ورجال الدين، وذلك بمقتضى شرط الواقف او حسبما تمليه المصلحة الدينية العامة.

جرت على هذا مديرية المعارف العامة في العراق، ولكن الذي يجب التنويه به هو ان المديرية المذكورة أغفلت بعض ما هو من واجباتها في هذا الموضوع. فهي تغدق الاموال الطائلة على الجوامع وتستخدم في كل منها عدداً من الذين يقومون بخدمتها بينما لم تلاحظ وجوب مساعدة طلبة العلم الذين يدرسون بانفسهم او يدرسون في مثل المدارس المذكورة آنفاً.

ورغم ان طلبة العلم في النجف الاشرف وغيرها من المدن - باستثناء العاصمة طبعاً - قد اتخذوا النفقة في الدين درساً؛ والوعظ والارشاد مهنة وبث روح الفضيلة والاسلام عملاً؛ لا يتقاضون جزاء عملهم اجرا. ولا ينالون ما يستحقون!!

والغريب ان المؤذن والمصلي وبواب الجامع يتقاضى مرتباً شهرياً في جوامع العاصمة، بينما في غيرها من الجوامع من يصلي ومن يؤذن وحتى من يعلم الاذان والصلاة ليس لهم من تلك الحقوق نصيب، فكأن الاوقاف قد اقتصرت على فئة معينة من رجال الدين...!

فحبذا لو اعارت المديرية هذه النقطة فتخصص مبلغاً من المال معيناً تشارك فيه وزارة المعارف في هذا الخصوص فتساعد مدرسة (المتدى) في اداء واجباته المطلوبة. والحقيقة انا اذا نظرنا الموضوع من حيث اساسه لوجدناه من واجبات الاوقاف وما دخول وزارة المعارف الجليلة فيه الا من طريق المساعدة لبث الثقافة لا غير.